مفهوم الوحدة الوطنية وأسسها
في فكـــر عبد الحميد بن باديس

أ / مبارك حـــداد عثمـــــــــان
المركز الجامعي سوق أهراس

مقدمة :

لئن كان ليل الاستعمار الفرنسي للجزائر قد امتد رواقه وتنوع مكره وطال أمده فانه عرف مقاومة عنيفة ومستمرة منذ وطئت أقدام الاحتلال أرض عقبة وطارق.

ولئن كانت أغلب المقاومات لم تحقق الاستقلال النهائي فإنها أبقت الشعور الوطني حيا، وحالت دون الشعب الجزائري وسياسة المستعمر القائمة على طمس الشخصية الوطنية والتفرقة العنصرية وهنا يبرز الدور الريادي الذي قام به رائد النهضة الوطنية المصلح عبد الحميد بن باديس في حماية الوحدة الوطنية.

01- عبد الحميد بن باديس مصلح وطني

الإصلاح كلمة مظلومة لأنها ارتبطت عند كثير من الناس بالأعمال الترقيعية البعيدة عن القضايا الجوهرية،أو هي على الأقل مقصورة على الاهتمامات الاجتماعية، معرضة عن القضايا السياسية.

وإذا كان عبد الحميد بن باديس قد غدا علما دينيا ومصلحا اجتماعيا وارتبطت مناسبة وطنية عظيمة باسمـــــه وهي يوم العلم، فان ابن باديس ينهض كذلك

رمزا وطنيا في مسير ة هذه الأمة ، تدلنا آثاره وتحدثنا أخباره على أنه كان مغرما بحب الوطن ، مدركا لأبعاد المؤامرة التي تحاك ضد أصالته ووحدته شغوفا إلى تحريره من كل أنواع التبعية والإلحاق. بل يمكن أن يقال انه كان أصدق حدســـا وأبعد نظرا من كثير من السياسيين الذين درجوا على أساليب السياسة التقليدية.

وإذا كان بن باديس قد عاجلته منيتـــه، وهو في ريعان شبابه، وعز عطائـــه،فان جهوده المبذولة فاقت عمره، وتجاوزت امكاناته ، لأن إرادته في حماية الجماعة الوطنية كانت كبيرة ، وحبه للوطن كان أكبر.

02- ابن باديس والسياســـــة

يعتقد كثير من الناس خطأ أن السياسة من شأن السياسيين المحترفين، وأن المسألة الوطنية من اختصاص هؤلاء الأخيرين، وما دام ابن باديس إماما ومصلحا فلا شأن له بقضية الوطنية ،خاصة وأنه أعلن أن جمعيته ليســـــت جمعية سياســـة و لا تتدخل في شئ من ذلك، بل (لا يجوز بحال أ يكون لها بالسياسة و كل ما يتصل بالسياسة أدنى اتصال) (01) و كان ابن باديس دائم التذكير في خطبه و مقالاته و مراسلاته ببعد الجمعية عن السياسة تماشيا مع قانونها الأساسي، والتزاما بالقوانين المعمول بها، لكن السؤال يطرح حول هذه التأكيدات المستمرة فيما يتعلق بمسألة السياسة و منهـــا الوطـــن و الوطنية هو لماذا اختار ابن باديس مربع الإصلاح، و لم يندرج ضمن مربع السياسة كما فعل من سبقه أو عاصره. أ لجهله بقواعد العمل السياسي، أم لتهيبه خوض غمارها،أم لخشيته من مآلاتها و عجزه عن تحمل تبعاتها؟ و الحقيقة أن ذلك كله غير صحيح، و إنما الصحيح من خلال استقراء جهود عبد الحميد بن

باديس،وسبر حقيقة شخصيته هو أن (المتتبع لأعمال الجمعية ونشاطها منذ ميلادها يجد و بكل وضوح أن أهدافها كانت وطنية سياسية بالدرجة الأولى وإن كانت قد بدأت بتطهير المعتقد و تهذيب السلوك و تحسين الأخلاق).(02) إن لجوء عبد الحميد بن باديس إلى تأسيس جمعية إصلاحية تهذيبية حنكة سياسية كانت غايتها تجنب الضغط الاستعماري الذي سيتعرض له ابن باديس لو أعلنها حركة سياسية صريحة،و هو ما يحول بينه و بين انبثاث فكرته وانسياب حركته في المجتمع الجزائري الذي سئم الأطروحات السياسية الفجة التي لم تتمكن من رفع الغبن عنه، لقد كان ابن باديس بعيد النظر خبيرا بالمجتمع مدركا للمؤامرة، لذلك ركز جهوده للمحافظة على الشخصية الوطنية وإعادة بعث الروح في عناصر الهوية الوطنية من دين و لغة ووطنية،وجمع قلوب و أرواح المواطنين حول هذه الفكرة التي توجهت سهام الاستعمار نحوها منذ يومه الأول، لعلم ابن باديس أن الشعب الذي فرقته السياسة يجمعه الإسلام و الوطن، لذلك لم يفتأ يطالب المستعمر بضرورة رفع يده عن مقدسات الجزائريين و خصوصياتهم القومية و عدم الحيولة دون العلماء و المساجد. و لم يكن لجوء ابن باديس إلى الدين واعتماد الجمعية في دعوتها عليه لمجرد التعبد و الزهد في الدنيا و الابتعاد عن مشاكل الحياة اليومية و هموم الوطن الأسير كلا، بل لأن الدين دعوة إلى الثورة على الظلم بكل أشكاله و تجلياته و التحرر من العبودية وربقتها. يقول ابن باديس منبها إلى هذه الحقيقة التي قد تخفى على أصحاب الإسلام الوراثي: (ان الدين الإسلامي يحرم عليكم أن تظلموا يهوديا أو نصرانيا أو مسلما، و أيضا لا يرضى لكم أن تقبلوا الظلم من يهودي ولا نصراني و لا مسلم) (03).

لقد كان ابن باديس يؤمن بالواقعية و المرحلية و مراعاة الظروف وأن الزمن جزء من العلاج، و أن الإصلاح و الاستقلال يبدأ بالمحافظة على المقومات الشخصية و الجماعة الوطنية .

بهذه النظرة الثاقبة و السياسة الرشيدة استطاع ابن باديس أن يشق طريقه بثبات ووضوح على الرغم من العراقيل الكثيرة و الحصار المستمر،واستطاع بذلك أن يزرع بذرة الوطنية الحقة الصادقة و يتعهدها، حتى أصبح اقتلاع نبتتها مستعصيا على كل المحاولات.

إذا كان عبد الحميد بن باديس قد اختار مربع الإصلاح فلأنه رآه المناخ المناسب للفكرة التي عاش لها ومن أجلها: فإذا هلكت فصيحتي تحيا الجزائر و العرب و لذلك لم تعمر الهدنة بينه و بين الاستعمار طويلا، حيث لم يمض عام على تأسيس الجمعية حتى بدأ الصراع بينها و بين الإدارة الفرنسية التي رأت في مبادئ الجمعية خطرا على مشروعها الثقافي في الجزائر.

لقد جاء تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد مرور قرن من الزمان على استعمار فرنسا للجزائر، و التي ظنت أنها تمكنت من القضاء على الـــروح الوطنيـــــة و طمس معالم الهوية بدء بتحويل المسلمين عن عقيدتهم والتـــــــي كانـــت بـــرأي لا فيجري واجبا مقدسا، حيث كتب يقول:(إن إدخال الأهالي للديانة المسيحية واجب مقدس، ينبغي أن نرقي هذا الشعب ولنضرب صفحا عن غلطات الماضي، فأول ما يجب علينا معهم هو الحيلولة بينهم و بين القرآن)(04).

كما جاء تأسيس الجمعية أيضا في وقت كثر فيه الحديث عن وجوب اندماج الجزائر في فرنسا و الدعوة للتخلي عن الهوية الإسلامية للحصول على الجنسية

الفرنسية، و قد انساق بعض المثقفين الجزائريين وراء هذا السراب الخادع ويمكن أن نورد هنا تصريح عباس فرحات على إثر اجتماع لهولاء المثقفين حيث قال: (لو أني اكتشفت القومية الجزائرية لكنت من القوميين،و لما خجلت من ذلك فالرجال الذين ماتوا من أجل الوطنية مكرمون محترمون، و لا تساوي حياتي أكثر من حياتهم. و مع ذلك فلن أموت من أجل وطن جزائري لأن ذلك الوطن ليس له وجود. و قد سألت التاريخ و سألت الأحياء و الأموات وزرت المقابر فلم يحدثني أحد عنه و لا يمكن البناء على الهواء. و لقد استبعدنا جميعا هذه الأوهام لنربط نهائيا مستقبلنا بما حققته فرنسا لهذه البلاد) (5). إنه لتصريح خطير يصدر من سياسي كبير يحمل بين طياته عمق الشرخ الذي أحدثه المشروع الثقافي الفرنسي في الجزائر، و التخبط الذي آلت إليه المحاولات السياسية. و هو ما جعل ابن باديس يرد على هذه المقالة الخاطئة و الخطيرة في الوقت نفسه و التي كانت تستهدف المقومات الوطنية و مستقبل الجزائر فكتب مقالين الأول بعنوان < كلمة صريحة> و الآخر < حول كلمتنا الصريحة> كانت خلاصتها التأكيد على تمايز الجزائر عن فرنسا تاريخـــا و جغرافيا و هوية بل المطالبة بالاستقلال الذي هو حق كل شعوب المعمورة. يقول ابن بـــاديس: (إن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا، و قد استقلت أمم كانت دوننا في القوة و العلم و المنعة و الحضارة، و لسنا من الذين يدعون علم الغيب مع الله و يقولون إن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد) (6).

إن جمعية العلماء المسلمين لم تكن حركة سياسية في حيثيات تأسيسها،و لكنها مارست السياسة سرا و جهرا و بذكاء كانت تستطيع معه دائما ألا تضع نفسها موضع المتهم المخالف للقانون الساري العمل، لإيمان ابن باديس أنه لا بد من

الجمع بين الدين و السياسة، و لا ينهض العلم و الدين كل النهوض إلا إذا نهضت السياسة بجد (7)

لقد رأى ابن باديس بثاقب بصريته، و بعد طول تقليب للأمور، و فحص لأحوال المجتمع أنه لا مناص من مواجهة المشروع الثقافي الفرنسي بالمحافظة على الهويـــة و إذكاء روح الوطنية، و لذلك ما فتئ يذكر بأهمية الوطن و الوطنية فهو يخاطب الجزائري قائلا:(من الإيمان أن تحب من أحسن إليك، ومن أحسن إليك مثل وطنك؟ فهو أصل تكوينك و مادة غذائكو مسرح طفولتك و شبابك فكيف تكون مؤمنا إذا لم تحب هذا المحسن العظيم) (8) .و هكذا يجعل ابن باديس خدمة الدين غاية في حد ذاتها، ووسيلة لخدمة الوطن بإحياء الروح الوطنية، (و إذا كان نشاط العلماء في الميدان السياسي لم يكن بارزا مثل نشاط الأحزاب السياسية البحته فإنهم استطاعوا بوعظهم المستمر أن يخلقوا رأيا عاما معتبرا دينيا ووطنيا في نفس الوقت لمواجهة الإيديولوجيات الأجنبية ، بل انهم كانوا جديرين أن يفخروا بأنهم الوحيدون الذين استطاعوا أن يقدموا للجزائريين بديلا في شكل نظريات عربية إسلامية أصلية تضع حدا نهائيا للتبعية السياسية و الثقافية) (9) إنه لم تستطع أي حركة سياسية على طول تاريخ الجزائر المقاومة و عرضه أن تحقق ذلكم الالتفاف الجماهيري الواعي بقدر ما حققته جمعية العلماء عدا ثورة التحرير المباركة.

03- مفهوم الوطنية و مقوماتها :

ابن باديس وطني من الطراز الأول، يشعر بعمق الارتباط بالوطن ماضيـــا و حاضـــــر و مستقبلا و يدرك عبء الواجب الملقى على عاتقه تجاهه يعتبره ابن باديس فروضا خاصة هي عربون وفاء لهذه الوطن الذي نذر حياته من أجله

بل ما فتئ يعلن عن الفكر ة التي يعيش لها والغاية التي يسعى إليها في كل مناسبـــة وهي أنه يعيش للإسلام والجزائر .

الإسلام باعتباره الدين الذي يحترم البشرية في جميع أجناسها ،والجزائر التي هي الدائرة الضيقة التي يجب أن تتصل خدماتنا أول ما تتصل بها دون الإضرار بأوطان الآخرين.(10) فالوطنية في مفهوم ابن باديس تقوم على التعلق بالوطن وتمجيد تاريخه وبعث ثقافته وإيصال النفع له ، في إطار مبادىء الدين الإسلامي السمح، ومن هنا فهي ليست وطنية عنصرية وليست وطنية دينية متزمتة.(إننا نتحد لننفع أنفسنا وننفع إذا استطعنا غيرنا ومعاذ الله أن نتحد على أحد أو نتفق على باطل أو نتعاون على إثم أو عدوان). (11) إن مفهوم الوطنية عند ابن باديس يقوم على المحافظة على مقومات الشخصية الوطنية، وذلك حق طبيعي لكل أمـــة وكل شعب، كما تقوم على الأخوة الإنسانية العادلـــــة. وهو إذ يدافع عن الشخصية الوطنية الجزائرية لا يفعل ذلك في إطار ضيق منفصل ،بل عندما يتحدث عن الموقف من الوطنية يقسم الناس إزاءها، إلى أربعة أقسام: أنانيون لا يعرفون إلا أوطانهم الصغيرة ، ومعاكسون للطبيعـــة البشرية لا يقرون الوطنية في سبيل الإنسانية والعالمية، و توسعيون يهدمون أوطان غيرهم لبناء أوطانهم ((وقسم اعترف بهذه الوطنيات كلها وأنزلها منازل غير عاديـــة ولا معدو عليها، ورتبها ترتيبها الطبيعي في تدرجها... وهذا الرابع هو الوطنية الإسلاميـــــــــة العادلـــة)) (12)

فمفهوم الوطنية إذا واضح تماما في ذهن ابن باديس وفي عمله، مفهوم معاكس تماما للواقع المر ومناهض للسياسة الاستعماريـــة القائمة على شعار الجزائر فرنسية والتـــي- وان سوقت لسياسة الإدماج- كانت تأخذ من الجزائريين ولا

تعطيهم ،وتفرض عليهم الواجبات ولا تمنحهم أبسط الحقوق ، ولذلك كان ابن باديس حريصا على تذكير الجزائريين بواجبهم نحو وطنهم، محذرا إياهم من الانسياق وراء السياسات الماكرة التي تعمل على ابتلاع الوطن وإرضاء المواطن بقليل من الحشف مع الكيلة الســـوء. ((فالوطني الصميم من لا تلهيه المنافع المؤقتة الزائلة عن المنافع الآجلة الباقية)) (13)

وليست هذه الأخيرة إلا المحافظة على الهوية والوحدة الوطنية استعدادا لا فتكاك الاستقلال واسترجاع السيادة. إن الأساس الذي تبني عليه الوطنية هي المقومات الشخصية للأمة من إسلام وعروبة و تاريخ بالإضافة إلى الحرية و الوحدة الشعورية و المادية بين أبناء الأمة. لذلك كان جهاد ابن باديس مركزا ومتواصلا حول هذه القضايا الأساسية و المصيرية، فهو لا يداهـــــن و لا يهـــــادن الاستعمـــار و أذانـــه و المخدوعين بسياسته إذا تعلق الأمر بواحدة من هذه المسائل لأنها عنوان الوجـــود و صمام الأمان. إذ لا قيمة لوطن أعضاؤه الحيوية مبتورة،فحين عارض وزير الحربية الفرنسية إعطاء الجزائريين حق النيابة البرلمانية ما داموا متمسكين بشخصيتهم الوطنية دعا ابن باديس إلى اليأس من فرنسا قائلا:((حرام على عزتنا القومية و شرفنا الإسلامي أن نبقى نترامى على أبواب برلمان أمة ترى أو ترى أكثريتها ذلك كثيرا علينـــــا،و يسمعنا كثير منها في شخصيتنا الإسلامية ما يمس كرامتناو يجرح أعز شئ لدينا، لندع الأمة الفرنسية ترى رأيها في برلمانها، ولنتمسك عن إيمان وأمل بشخصيتنا)) (14)

لقد أطلق ابن باديس شعارات كانت آية في الوطنية عمقا ووضوحا و مفاصلة،أحدثت هزة عنيفة في كيان الشعب فهب عن بكرة أبيه ليحتضن

برنامج الجمعية و يعمل على تحقيق أهدافها. كما أحدثت هذه الشعارات زلزالا عنيفا تصدع له المشروع الثقافي الفرنسي و خاب له فأل المستعمر .

فأما الشعار الأول فكان بواسطة العقد الذي حلى به ابن باديس صدر جريدة المنتقد الغراء((هذا أيام كانت كلمة الوطن و الوطنية كلمة إجرامية لا يستطيع أحد أن ينطق بها و قليل جدا من يشعر بمعناها و إن كان ذلك المعنى دفينا في كوامن النفوس ككل غريزة من غرائزها)) (15) فهو لا يكتم إيمانه بوطنيته، بل يجاهر بذلك و لها يعمل، يقول ابن باديس((و قد أعلناها يوم قلنا على رأس جريدة المنتقد (الحق فوق كل أحد و الوطن قبل كل شئ) و سرنا على مقتضاها إلى اليوم في كل ما قلنا و كتبنا و سنبقى عليها)) (16) .و أما الشعار الثاني الذي رفعه ابن باديس و كان يمثل الوطنية في أعمق معانيها و أسمى صورها فكان ذلكم الشعار الثلاثي الإسلام ديني، العربية لغتي،الجزائر وطني، وهو الشعار البرنامج الذي دحض به ابن بادس كل أباطيل المستعمر وزيف ادعاءاته. و قد عمق ابن باديس معاني هذا الشعار من خلال نشيد شعب الجزائر مسلم. هذا النشيد الذي يقال إن ابن باديس نظمه بعدما نفض يديه من الوعود الكاذبة التي منت بها فرنسا الشعب الجزائري على إثر زيارة الوفد الإسلامي لباريس، و التي لم يكن ابن باديس ينتظر منها شيئا و إنما مجرد الإعذار إلى الشعب الجزائري وكشف طبيعة الاستعمار،و حقيقة سياسة فرنسا نحو الجزائريين،و إلا فالأمر كما قال ابن باديس: (إننا نعلم من أنفسنا أننا أدركنا هذا الإخلاف العرقوبي و أدركنا مغزاه و اخذ اليأس بتلابيب كثير منا و هو يكاد يعم،و لا نتردد في أنه قد آن أوانه و دقت ساعته)) (17) .و قد أعلن ابن باديس بهذا النشيد براءته من فرنسا و أذنابها و حث شعب الجزائر على أن يستعد لساعة المفاصلة و أن

يخوض من أجل وطنه الخطوب. وكما كان مطلع هذه القصيدة رائعا فقد كان ختامها مسكا، فإذا هلكت فصيحتي تحيا الجزائر و العرب. و هكذا ظل ابن باديس مسكونا بهاجس الوطن، باذلا كل جهد في سبيله، لأنه لا عزة و لا كرامة، بل لا حياة لشعب مستعبد، و من هنا كانت الحرية إحدى ركائز الوطنية في فكر الوطني عبد الحميد بن باديس.

قلنا إن ابن باديس قد بنى الوطنية على عناصر الهوية الوطنية لذلك ركز كل جهوده على إحياء الإسلام،و تصحيح مفهومه،فهو عقيدة و منهج حياة و هو دعوة إلى السلم وثورة على الظلم مفرقا بين الإسلام الو راثي و الإسلام الذاتي، فأما الأول فارتباط المسلم به ارتباط عاطفي، و أما الآخر فالارتباط به ارتباط فكر و نظر، ووعي و فهـــم و عليه المعول في نهضة الأمة وفق سنة الله الكونية القائمة على قوله تعالى((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فالنوع الأول من الإسلام هو إسلام الطرقية و الإسلام الذي تريده فرنسا لأنه مجرد عنوان أو لبوس لا ينفذ إلى الأعماق و لا يثور على الأوضاع،لأجل ذلك ناضل ابن باديس من أجل فصل الدين عن الدولة،حتى يتمكن العلماء العاملون من الوصول إلى الجماهير،واستنهاضهم من غفلاتهم،و انتشالهم من الوهدة التي ينحدرون نحوها و كان دائم الطلب من فرنسا أن ترفع يدها عن الإســـــــلام (بحيث لا تتدخل في شئ من شؤونه لا ظاهر و لا باطنا،لا في أصوله و لا في فروعه)(18) ذلك أن فرنسا أصبحت تتدخل في التدريس و الخطابة كما تتدخل في القضاء الشرعي بل حتى في الشعائر الدينية. و مثلما كان المشروع الثقافي الاستعمار يستهدف الإسلام و القرآن استهدف كذلك اللغة العربية والانتماء العربي، إلى حد أن اعتبر اللغة العربية لغة أجنبية و كفى بذلك إثما

مبينا. و قد أدركت الجمعية وأدركت الجزائر أن الهدف من قانون 8 مارس المشئوم ضرب للأمة في مقوماتها و الحيلولة بينها و بين القرآن. غير أن ابن باديس لا يقف مكتوف اليدين راضيا بقضائه و قدره بل أعلنها صيحة مدوية((إننا نعلن لخصوم الإسلام و العربية أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا وسنمضي – بعون الله– في تعليم ديننا و لغتنا رغم كل ما يصيبنـــا،و لا يصدنا عن ذلك شئ)) (19) وإذا كانت فرنسا قد أصرت على غلق المدارس الحرة و منع التعليم و معاقبة المعلمين بالحبس و التغريم فإن ابن باديس قد أصر على المطالبة بهذا الحق و المضي في ذلك النهج مادام الأمر يتعلق بهوية الوطن والمواطن.

إذا كان ابن باديس ناضل من أجل استقلال الشخصية الوطنية عن فرنسا وعمل على تنميتها،فانه عمل أيضا على تماسك اللحمة الوطنية و تصدى لكل مؤامرات سياسة التفرقة العنصرية يقول ابن باديس((و لأننا جزائريون نعمل للم شعث الأمة الجزائرية و إحياء روح القومية في أبنائها و ترغيبهم في العلم النافع و العمل المفيد حتى ينهضوا كأمة لها حق الحياة)) (20) لقد كانت الوحدة الوطنية إحدى القضايا التي حمل ابن باديس همها، يدعو إليها و يحذر من مكائد الاستعمار حيالها كلما حل أو ارتحـــــل. كما كان يبعث بالبرقيات و يوفد الرسل كلما وقع خلاف بين المجموعات الوطنية.

وإذا كان الاستعمار الفرنسي جعل التفرقة العنصرية إحدى أركان سياسته وأحد بنود مشروعه الثقافي محاولا تسويقه في ربوع الوطن، فإن تركيزه وقع على منطقة القبائل.حيث عمل على منع تدريس الثقافة الإسلامية،و منع القضاء الشرعي،و شجع القضاء الفرنسي أو العرفي كما شجع النزعة البربرية للتفريق

بين الجزائريين،و شجع التجنيس و التنصير و الإعلام المفرنس،فوقف ابن باديس لهذه المحاولة بالمرصاد حيث كتب تحت عنوان: كيف صارت الجزائر عربية: (ما من نكير أن الأمة الجزائرية كانت أمازيغية من قديم عهدها و أن أي أمة من الأمم التي اتصلت بها استطاعت أن تقلبها عن كيانها و لا أن تخرج بها عن أمازيغيتها أو تدمجها في عنصرها بل كانت هي التي تبتلع الفاتحين فينقلبون إليها و يصبحون كسائر أبنائها فلما جاء العرب و فتحوا الجزائر فتحا إسلاميا لنشر الهداية و إقامة العدل الحقيقي بين الناس لا فرق بين العرب الفاتحين و الأمازيغ أبناء الوطن الأصليين دخل الأمازيغ في الإسلام، و تعلموا لغة الإسلام العربية طائعين.....فامتزجوا بالعرب بالمصاهرة و نافسوهم في مجالس العلم و الأدب و اللغة فأصبحوا شعبا واحدا عربيا متحدا غاية الاتحاد ممتزجا غاية الامتزاج وأي افتراق بقي بعد أن اتحد الفؤاد واتحد اللسان)) (21) .

فابن باديس و إن كان بربريا صنهاجيا لكنه يقف ضد هذه الفكرة الشعوبية الهدامـــــة،و لا يتوانى في وصف دعاتها بأنهم شياطين يعدون و يمنون الناس بالغرور و أن كيد الشيطان كان ضعيفا((لأن أبناء يعرب و أبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا ثم دأبت تلك القرون تمزج بينهم في الشدة و الرخاء و تؤلف بينهم في العسر و اليســـر و توحدهم في السراء و الضراء حتى كونت منهم خلال أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا أمه الجزائر و أبوه الإسلام)) (22) فابن باديس لا ينكر الأصل الأمازيغي للجزائريين، لكن الإسلام يمحوا الفوارق الجنسية و ينفي النعرات العنصرية و قد أعلن الرسول صلى الله عليه و سلم أنه:(ليس منا من دعا إلى عصبية و ليس منا من قاتل على عصبية و ليس منا من مات على عصبية).لذلك أعد ابن باديس العدة لمواجهة

هذه الجرثومة المميتة التي حاول الاستعمار زرعها في جسم الجماعة الوطنية فعمل على تشجيع الصحافة العربيـــة و المحاضرات و شجع التعليم العربي والثقافة الإسلامية وأسس لذلك المدارس و أقام الزوايا الإصلاحية، و لم يمض وقت طويل حتى أصبحت مؤسسات الجمعية ودعاتها و المتعاطفون مع فكرتها ومنهجها يزاحمون الاستعمارو أعوانه في هذه المنطقة الغالية من ربوع هذا الوطن المفدى.

إذا كان ابن باديس قد ناضل من أجل هوية الجزائر ووحدتها فإنه اعتبر أن تحقيق هذه الأهداف، و المحافظة على تلك الأصول يبقى مفتقرا إلى الحرية التي هي مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية و مطلب من مطالب الإنسانية. فبمناسبة احتفال فرنسا بعيد النصر والاستقلال الذي دفع الجزائريون في سبيله ثمنا باهضا و تنكرت فرنسا لجميلهم و تضحياتهم كتب يقول: ((حق كل إنسان في الحرية كحقة في الحياة،و مقدار ما عنده من حياة هو مقدار ما عنده من حرية،المعتدي عليه في شئ من حريته كالمعتدي عليه في شئ من حياته))(23)

بهذه الصراحة و الجرأة يواجه فرنسا التي صادرت كل نوع من أنواع الحرية بدء من الحرية الدينية إلى حرية السيادة و الاستقلال،و ينبه الجزائريين إلى أن مطلب الحرية مبتغى كل حر و حق كل إنسان، و قد كتب ابن باديس معلقا على اجتماع الوفد الإسلامي بالشعب عشية عودته من باريس: (أيها الشعب إنك بعملك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متعشق للحرية و هائم بها، تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ ركنا نحن الحاملين للوائها و سنعرف في المستقبل كيف نعمل لها و كيف نحيا ونموت لأجلها)) (24) ذلك أن الشعب الجزائري و إن استعبدت فرنسا جسده إلا أنه ظل حر الفكر و القلب و الروح،متطلعا إلى

الحرية و قد كان حامل لوائها و المبشر بها ذلك أن قيمة الإنسان بقدر حريته وهي في النهاية مسألة موت أو حياة.

توهم الاستعمار أنه صير الجزائر قطعة من فرنسا يوم أن أصدرت إدارة الاستعمار قرارا في 1834/07/22 يقضي بأن الجزائر ملكية فرنسية، عززته بمرسوم 4 مارس 1848 اعتبرت فيه الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا ثم عادت لتؤكد بعد مجزرة 8 ماي 54 أن الجزائر فرنسية، و بين كل هذه المراسيم و القرارات كانت تنفذ سياسة جهنمية تمثلت في مشروع ثقافي استعماري يهدف إلى محو الشخصية الوطنية و من ثم استعباد الجزائريين من خلال سياسة الإدماج و التجنيس و غيرها، و قد وجدت فرنسا في عبد الحميد بن باديس خصما أفسد عليها سياستها و مهد للقطيعة التامة بين الفرنسيين والجزائريين بعد الحرب العالمية الثانية و هو الذي صرح يقول: ((إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، و لا يمكن أن تكون فرنسا ، و لا تستطيع أن تصير فرنسا و لو أرادت ، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها و في أخلاقها و في عنصرها و في دينها، لا تريد أن تندمج، و لها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة)) (25) . بهذه الصراحة و الوضوح و الدقة يرسم ابن باديس ملامح الوطن و يحدد مفهوم الوطنية ويبين مقوماتها ويعرب عن اعتزازه به و انتمائه إليه و نضاله في سبيله.

و لئن وصف المؤرخون الزعيم مصالي الحاج بأنه أبو الوطنية الداعية إلى الاستقلال التام عن فرنسا، فإن هذا الوصف ذاته و أكثر ينطبق على الإمام عبد الحمد ابن باديس رائد نهضة الجزائر و المؤسس لثورتها المباركة. و إذا كان ابن

باديس غدا علما إسلاميا و بطلا وطنيا، فإن فكره الإصلاحي مازال بحاجة إلى دراسة جادة لتستفيد منه جزائر الاستقلال كما استفادت منه الجزائر المستعمرة.

الهـــــــــــوامـــــش

1. عمـــــار طالبي، اثار عبد الحميد بن باديس 55/4.
2. محمود قاسم، الامام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لثورة التحرير الجزائرية 119.
3. د ، بوالصفصاف ، جمعية العلماء المسلمين وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى 109
4. محمود قاسم ، الامام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي118.
5. عمـــــار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر ص 147/146 .
6. عمـــــار طالبي ، آثار الامام عبد الحميد بن باديس 305/5.
7. حسن عبد الرحمان سلوادي، عبد الحميد بن باديس مفسرا ص 207.
8. عمـــــار طالبي ، اثار عبد الحميد بن باديس 203/6.
9. د، بو الصفصاف، جمعية العلماء المسلمين و علاقاتها بالحركات الجزائرية 149.
10. عمار طالبي ،آثار عبد الحميد بن باديس 109/4 و ما بعدها .
11. محمـــد الميلي ، ابن باديس و عروبة الجزائر 53.

12. المرجع نفسه86.

13. المرجع السابق 49.

14. محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لثورة التحرير ص 72/71

15. عمـــــار طالبي، آثار عبد الحميد بن باديس 339/5.

16. المرجع نفسه 341.

17. محمد الميلي، ابن باديس و عروبة الجزائر ص 181.

18. صالح عـــــوض، معركة الإسلام و الصليبية في الجزائر ص 255.

19. محمد الميلي، ابن باديس و عروبة الجزائر ص 152/151.

20. صـــــالح عوض، معركة الاسلام و الصليبية في الجزائر ص 234.

21. د ، بو الصفصاف، جمعية العلماء و علاقاتها بالحركات الجزائرية الاخرى 131.

22. عمـــــار طالبي ، اثار عبد الحميد بن باديس 459/5.

23. المرجع نفسه 454.

24. المرجع نفسه 316.

25. المرجع نفسه